كليــة اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلميــة

الاستفهام في سورة يوسف ـ عليه السلام ـ
بين الأثر النفسي والموقع البلاغي

إعداد
د/ تامــر محمـد أحمـد حجـازي
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
بكلية اللغة العربية بإيتاي البارود ورئيس القسم

(العــدد الأربــعــون)
(إصـدار أكـتـوبـر ـ الـجـزء الثالث)
(١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م)

الاستفهام في
سورة يوسف ـ عليه السلام ـ
بين الأثر النفسي والموقع البلاغي

تامر محمد أحمد حجازي
قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، إيتاي البارود، مصر.
البريد الإلكتروني: drtamer@azhar.edu.eg

الملخص :

يدور هذا البحث حول أساليب الاستفهام الواردة في سورة يوسف ـ عليه السلام ـ بين الأثر النفسي والموقع البلاغي حسب المستفهم (بكسر الهاء)، وقد وقع في السورة المباركة سبعة عشر استفهامًا؛ أربعة وردت على لسان سيدنا يوسف، وخمسة وردت على لسان إخوته، واستفهامان وردا على لسان سيدنا يعقوب ـ عليه السلام ـ وواحد ورد على لسان امرأة العزيز، واثنان وردا على لسان العزيز وأعوانه، وأخيرًا ثلاثة وردت من الله ـ عز وجل ـ في ختام السورة. والدراسة تُعنى بالانعكاسات النفسية وراء كل استفهام، وفقًا لصاحبه وموقعه البلاغي في السياق، ولا شك أنَّ اختلاف شخصيات القصة ترتب عليه اختلاف الأثر النفسي وراء كل استفهام، وهي بذلك تفتح بابًا عظيمًا لاستقراء الأثر النفسي للاستفهام في القرآن الكريم كله وفقًا لموقعه البلاغي واختلاف المستفهمين.

الكلمات المفتاحية: يوسف ، النفسي ، الاستفهام ، البلاغي ، الأثر.

the interrogative mentioned in Surat Yusuf, (peace be upon him,) between the psychological impact and the rhetorical position according

Tamer Mohamed Ahmed Hegazy
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language, Al-Azhar University, Itay El-Baroud, Egypt.

Email: *drtamer@azhar.edu.eg*

Abstract

This research discusses the interrogative methods mentioned in Surat Yusuf, (peace be upon him,) between the psychological impact and the rhetorical position according to the questioner. Eighteen questions took place in the blessed Surah; Four of them by our master Yusuf, five by his brothers, two interrogations by our master Jacob,(peace be upon him), one by the wife of the Aziz(Egypt's king), and two by the tongue of the Aziz and his aides, and finally four were received from God Almighty at the end of the surah. The research concerns with the psychological consequences behind each question, according to its questioner and its rhetorical position in the context, and there is no doubt that the different characters of the story resulted in a different psychological impact behind each question, and thus it opens a great way to extrapolate the psychological impact of the question in the Holy Qur'an as a whole according to its rhetorical position and the difference of the interrogators.

Keywords: ***Yusuf, psychological, interrogative, rhetorical, impact.***

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وإمام المرسلين سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد...

فقد لفت انتباهي وأنا أقرأ سورة يوسف – عليه السلام – ما ورد فيها من استفهامات كثيرة بلغت سبعة عشر موضعًا، وحين تأملتها وجدتها قد وردت على ألسنة شخصيات متعددة من شخصيات القصة بالإضافة إلى ورودها على لسان الله – عز وجل – وقد بدا واضحًا ما بينها من فروق دلالية واختلافات نفسية، وفقًا لاختلاف الموقع البلاغي لكل استفهام.

وقد جاء البحث وفقًا لذلك في ستة مباحث:

ومعلوم أن السورة سميت باسم نبي الله سيدنا يوسف عليه السلام، من أجل ذلك قدمته في المبحث الأول، وقد ورد فيه أربعة مواضع للاستفهام على لسانه – عليه السلام – ثم يأتي المبحث الثاني وهو الاستفهام الوارد على لسان إخوة يوسف عليه السلام؛ لكونهم العماد الثاني في القصة، وقد ورد على لسانهم خمسة استفهامات كذلك، ثم يأتي المبحث الثالث وهو يتمثل فيما ورد من استفهام على لسان والدهم سيدنا يعقوب عليه السلام وذلك في موضعين.

وإذا كانت امرأة العزيز من أهم عناصر وأبطال قصة يوسف إلا أنها لم يرد الاستفهام على لسانها سوى مرةً واحدةً، وقد خصصت لها المبحث الرابع، أما المبحث الخامس فقد جاء بعنوان: الاستفهام الواقع من الملك وأعوانه، وقد اشتمل على موضعين، ثم يأتي المبحث السادس والأخير وهو بعنوان: الاستفهام الواقع

من الله – عز وجل – وهو يشتمل على ثلاثة مواضع ورد منها موضع في آية واحدة، واثنان متتاليان في آية أخرى ليكون بذلك إجمال مواضع الاستفهام في السورة الكريمة سبعة عشر موضعًا، قسمتها حسب ورود الاستفهام على لسان المستفهم «بكسر الهاء»، ورتبت المباحث وفقًا لشدة صلته بأحداث القصة ومقصد السورة.

الدراسات السابقة :

ـ التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم – أول تفسير موضوعي (١٢٦٠) استفهامًا في القرآن كله تأليف أ. د. عبد العظيم المطعني – رحمه الله تعالى – جامعة الأزهر مكتبة وهبة الطبعة الأولى – ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م

ـ الجملة الطلبية في سورة يوسف دراسة تركيبية دلالية علاء الدين الغرايبة الجامعة الأردنية – مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية المجلد ٤١ العدد ١ ٢٠١٤م

ـ أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم – غرضه وإعرابه تأليف عبد الكريم محمود يوسف مطبعة الشام – الطبعة الأولى ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م

ـ جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف د. عويض بن حمود العطوي – عميد الدراسات العليا بجامعة تبوك – السعودية كلية التربية والآداب ١٤٣١هـ – تدبر

وغيرها من الدراسات القرآنية في الاستفهام أو الإنشاء عمومًا أو سورة يوسف عليه السلام.

لكن هذه الدراسة آثرت الجمع بين الأثر النفسي والموقع البلاغي وفقًا لاختلاف الشخصيات التي ورد على لسانها الاستفهام.

وبعد،،، فهذا جهد قدمته أسأل الله له الإخلاص والقبول، وأن يكون لبنة في بناء الدراسات القرآنية الشامخ، وأن ينفع به كاتبه وقارئه إنه نعم المولى ونعم النصير.

والله من وراء القصد،،،

د. تامر محمد أحمد حجازي

تمهيد

عرض المباحث والآيات:

في هذا التمهيد أعرض الآيات القرآنية الواردة في كل مبحث، وفقًا لمدى ارتباط المباحث بالمقصد الأعظم لسورة يوسف عليه السلام، وشدة ارتباطها بشخصيات القصة ، وذلك على النحو التالي:

المبحث الأول

الاستفهام الواقع من يوسف عليه السلام

عرض الآيات

(الموضع الأول)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩].

(الموضع الثاني)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠ ﴾ [يوسف: ٥٠].

(الموضع الثالث)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٥٩ ﴾ [يوسف: ٥٩].

(الموضع الرابع)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يوسف: ٨٩].

المبحث الثاني

الاستفهام الواقع من إخوة يوسف عليه السلام

عرض الآيات

(الموضع الأول)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١].

(الموضع الثاني)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يوسف: ٦٥].

(الموضع الثالث)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [يوسف: ٧١].

(الموضع الرابع)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ

أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۡ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يوسف: ٨٠].

(الموضع الخامس)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[يوسف: ٩٠].

المبحث الثالث

الاستفهام الواقع من يعقوب عليه السلام

عرض الآيات

(الموضع الأول)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يوسف: ٦٤].

(الموضع الثاني)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[يوسف: ٩٦].

المبحث الرابع

الاستفهام الواقع من امرأة العزيز

عرض الآيات

(موضع واحد)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا

جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾[يوسف: ٢٥].

المبحث الخامس

الاستفهام الواقع من الملك وأعوانه

عرض الآيات

(الموضع الأول)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [يوسف: ٥١].

(الموضع الثاني)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [يوسف: ٧٤].

المبحث السادس

الاستفهام الواقع من الله عز وجل

عرض الآيات

(الموضع الأول)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٧].

(الموضع الثاني، والثالث)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾[يوسف: ١٠٩].

المبحث الأول

الاستفهام الواقع من يوسف عليه السلام

(الموضع الأول)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩]

هذا هو أول استفهام ورد على لسان سيدنا يوسف – عليه السلام – والثالث بترتيب السورة الكريمة وترتيب أحداث القصة المباركة، وبالتأمل فيه من ناحية الترتيب ترى وراءه نفسًا قوية لا تأبه بما يقابلها من صعاب وعقبات مؤلمة لشخصه الكريم، فيوسف هو ذلك الفتى الذي ألقي في الجب، وهو ذلك الفتى الذي اختطف من أحضان والديه، وهو ذلك الفتى الذي تعرض لفتنة امرأة العزيز، وسجن ظلمًا ومع كل تلك المحن يرد أول استفهام على لسانه مسخرًا لخدمة دعوته: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

وبالمقارنة بينه وبين ما سبقه من استفهامات وردت على لسان غيره، وهما استفهامان؛ أحدهما ورد على لسان إخوته موجهًا لأبيهم: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ووراءه ما وراءه من معاني الغدر والكذب والتدليس، حرصًا على الانتقام لإرضاء شهوة النفس، والثاني ورد على لسان امرأة العزيز: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، وهو مؤسس على الاتهام الباطل والافتراء وتلفيق التهم بقوة السلطة، ليأتي بعد ذلك الاستفهام الثالث بترتيب السورة – وقد قاربنا

على نصفها الأول – على لسان يوسف الصديق – عليه السلام – ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ إنه في محنة شديدة، وفي كرب عظيم، وفي أزمة نفسية خانقة، فحاله تقتضي أن ينشغل بالاستفهام عن كيفية الخروج من سجنه والتخلص من أزمته، لكنه وهو الواثق بقضاء ربه، المطمئن بسجنه حيث كان بديلًا للوقوع في الفاحشة ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ لا يلتفت إلا إلى دعوته، ولا يتساءل إلا ليأخذ بيدي صاحبيه في المحنة إلى نور التوحيد مقارنًا لهما بين أرباب متفرقة ضعيفة عاجزة، وبين إله واحد قادر قهار: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾؟ « وَأَرَادَ بِالْكَلَامِ الَّذِي كَلَّمَهُمَا بِهِ تَقْرِيرَهُمَا بِإِبْطَالِ دِينِهِمَا، فَالِاسْتِفْهَامُ تَقْرِيرِيٌّ»(١).

والتقرير هنا يصل بهم إلى الإقناع بالحجة والبرهان، فإذا أقرا بضلال مسلكهما وصلا إلى طريق النور والهداية، وهو مسلك نفسي عجيب سلكه نبي الله يوسف – عليه السلام – لإقامة الحجة عليهما وإقناعهما بالدليل والبرهان دون تنفير.

قال في البحر المحيط:

«ثُمَّ أَوْرَدَ الدَّلِيلَ عَلَى بُطْلَانِ مِلَّةِ قَوْمِهِمَا بِقَوْلِهِ: أَأَرْبَابٌ، فَأَبْرَزَ ذَلِكَ فِي صُورَةِ الِاسْتِفْهَامِ حَتَّى لَا تَنْفِرَ طِبَاعُهُمَا مِنَ الْمُفَاجَأَةِ بِالدَّلِيلِ مِنْ غَيْرِ اسْتِفْهَامٍ. وَهَكَذَا الْوَجْهُ فِي مُحَاجَّةِ الْجَاهِلِ أَنْ يُؤْخَذَ بِدَرَجَةٍ يَسِيرَةٍ مِنَ الِاحْتِجَاجِ يَقْبَلُهَا، فَإِذَا قَبِلَهَا

(١) التحرير والتنوير :٢٧٤/١٢ « تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي «المتوفى : ١٣٩٣هـ» الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

لَزِمَتْهُ عَنْهَا دَرَجَةٌ أُخْرَى فَوْقَهَا، ثُمَّ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى الْإِذْعَانِ بِالْحَقِّ » [1].

وهكذا سلك معهما مسلك التلطف والإقناع، حيث ناداهما بوصف الصحبة: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ﴾.

وأما الإقناع: فقد بدا في أنه – عليه السلام – لم يواجههما مباشرة ببطلان ديانتهما وإنما وجه إليهما الاستفهام ليخجل كل منهما ويرتدع.

وقد ذكر شيخنا العلامة عبد العظيم المطعني – رحمه الله – أن الغرض من الاستفهام هنا الإنكار والتقرير معًا؛ فالإنكار للشق الأول: ﴿ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ ﴾؛ لأن هذه الأرباب شر محض لا خير فيها، أما الشق الثاني: ﴿ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾؛ فالاستفهام فيه للتقرير [2].

وانظر إلى الهمزة ومعادلتها بأم ليقارن بين أربابهم المتفرقة فعندهم إله الخير وإله الشر وإله المطر .. إلخ، وبين الله الواحد القهار، ومعلوم أن الهمزة يليها المشكوك فيه كما قرر الإمام عبد القاهر وذلك في قوله: « ومِنْ أَبْيَن شيءٍ في ذلك «الاستفهامُ بالهمزةِ»، فإنَّ موضعَ الكلام على أَنك إِذا قلتَ: « أَفَعلْتَ؟ »، فبدأتَ بالفعل، كان الشكُّ في الفِعل نَفْسِه، وكان غَرضُكَ مِن استفهامِك أنْ تَعْلم وُجودَه،

---

(٢) البحر المحيط في التفسير: ٦ / ٢٧٨ المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي «المتوفى: ٧٤٥هـ» المحقق: صدقي محمد جميل الناشر: دار الفكر – بيروت الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

(١) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم – أول تفسير موضوعي (١٢٦٠) استفهامًا في القرآن كله تأليف ا د عبد العظيم المطعني – رحمه الله تعالى – ٢/ ١٢٨ جامعة الأزهر مكتبة وهبة الطبعة الأولى . ١٤٢٠هـ . ١٩٩٩م.

وإذا قلتَ: «أأَنْتَ فعلتَ؟»، فبدأْتَ بالاسمِ، كان الشكُّ في الفاعِل مَنْ هوَ، وكان التردُّدُ فيه» [1] فوقوع الأرباب بعد الهمزة يجعلها محلًا للشك وزعزعة الثقة أمام عقولهم ليستأصل من قلوبهم عقائد الشرك الباطلة.

والقهار اسم من أسماء الله الحسنى ومعناه الغلبة والقوة والقدرة، «وَقَابَلَ تَفَرُّقَ أَرْبَابِهِمْ بِالْوَاحِدِ، وَجَاءَ بِصِفَةِ الْقَهَّارِ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى لَهُ هَذَا الْوَصْفُ الَّذِي مَعْنَاهُ الْغَلَبَةُ وَالْقُدْرَةُ التَّامَّةُ، وَإِعْلَامًا بِعُرُوِّ أَصْنَامِهِمْ عَنْ هَذَا الْوَصْفِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْبَدَ إِلَّا الْمُتَّصِفُ بِهِ، وَهُمْ عَالِمُونَ بِأَنَّ تِلْكَ الْأَصْنَامَ جَمَادٌ» [2].

(الموضع الثاني)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [يوسف: ٥٠]

والبال: الشأن والحال، أي ما حالهن وما قصتهن، أراد أن يستبين براءته قبل خروجه حتى لا يفتح مجالًا لقالة السوء فيه بعد نيل الحظوة عند الملك، ووراء الاستفهام ما وراءه من معاني العفة والنزاهة والصبر والحرص على ظهور البراءة، وقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم – « وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ): ١١١ المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م

(٢) البحر المحيط في التفسير: ٦ /٢٧٨

يُوسُفُ، لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ » [1].

وهذا الاستفهام من يوسف – عليه السلام – امتداد لسابقه وينطلق من القاعدة النفسية والعقدية العريضة التي تأتي على أساسها استفهامات نبي الله يوسف الصديق – عليه السلام – وهي تتمثل في تقديم الدين على الدنيا والعقيدة على المصلحة الشخصية، حتى وإن كان ذلك على حساب تحمله العنت والتعب والمشقة.

إن السجين لو بدا له شعاع من نور الخروج والتحرر من قيود السجن وظلمته أيا كان هذا السجين لبادر باستغلاله واستثماره حتى لا تفوته الفرصة، فمن ذا الذي سيسأل عنه إن هي فاتت، لكن الأمر مختلف مع نبي الله يوسف، فهمه الأول أن تظهر براءة عرضه ودينه أمام الناس؛ ليس رياء ولا سمعة بل حفاظًا على مقامه وموقعه بعد ذلك من الملك.

وألحظ أنه لم يوجه الاتهام لامرأة العزيز حتى لا يثير حفيظة الملك، وإنما جمعهن: ما بال النسوة، وهذا من كرمه وأدبه وحفظه للجميل، قال الإمام الزمخشري:

« ومن كرمه وحسن أدبه: أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به وتسببت فيه

(٣) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه صحيح البخاري: ٤/ ١٤٧ حديث رقم: ٣٣٧٢ المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة «مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي» الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

من السجن والعذاب، واقتصر على ذكر المقطعات أيديهن»[1].

واستشهد بالله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، وذكر ابن عطية أن الرب هنا هو عزيز مصر، ولم يقبله صاحب البحر المحيط،[2] والأولى أن المراد بربه الله عز وجل، فقد سلك الصديق – عليه السلام – مسلك التثبت والحرص على الوصول إلى اليقين حتى إن خرج خرج طاهر الساحة غير مغموز الجانب.

إن قمة الكمال البشري تتجلى عند يوسف عليه السلام حين يريد أن يثبت براءته لكن ليس على حساب الإساءة إلى غيره، ولذلك لم ينسب للنسوة ولا لامرأة العزيز اتهامًا صريحًا مباشرًا وإنما قال: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، ومثل هذا لا يصدر إلا عن نفس راضية بقضاء الله مفعمة بالإيمان حريصة على الاستبراء لدينها ودنياها.

(الموضع الثالث)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [يوسف: ٥٩]

والاستفهام هنا في قوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾، والغرض منه التقرير وتأكيد هذا المعنى في نفوسهم حتى يطمئنوا على مكافأتهم

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي: ٢/ ٤٧٨ دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت تحقيق: عبد الرزاق المهدي.

(٢) البحر المحيط: ٢٨٨/٦ .

على الإتيان بأخيهم من أبيهم.

وقد سلك معه نبي الله – عليه السلام – مسلك التأكيد لتطمئن قلوبهم إلى صدقه وذلك بوسائل عدة:

أولها: أنه ذكر فعل الرؤية وهي بصرية يقينية محسوسة، فقد شاهدوا بأم أعينهم كرمه وكثرة عطاياه.

وثانيها: التأكيد بـ «أن وألا» وهما يستأصلان من نفوسهما الشك في أن يكون لهما مخادعًا.

وثالثها: تذييل الجملة بقوله: وأنا خير المنزلين، وهو وإن كان مدحًا للنفس إلا أنه مطلوب في مقامه، حتى يبث الثقة في قلوبهم.

والاستفهام منفي دخلت فيه همزة الاستفهام على لا النافية، وهو بذلك يقررهم بكرمه ووفائه وحسن قراه، وأنه لا يعقل أن يغدر بهم أو يخادعهم.

والحقيقة أن يوسف – عليه السلام – كان يضع خطة محكمة للوصول إلى أخيه، وقد عرف أنهم إخوته: فعرفهم وهم له منكرون، ومع ذلك لم يكن لهم مخادعًا؛ لأنه يريد أن يلقنهم درسًا في الصدق وحسن عوض الله.

والملمح النفسي هنا أن الاستفهام في هذا المقام مختلف عن سابقيه، فقد كان هناك مهتمًا بدعوته والاستبراء لعرضه، لكنه هنا دخل في مواجهة صريحة مع إخوته، وما زال متلطفًا معهم رغم مكانته وقدرته على الانتقام، وكأني به يستنطقهم بحسن الشهادة له في دينه ووفائه وأخلاقه الكريمة حتى إذا أخذ أخاه لم يكن ملومًا لديهم.

(الموضع الرابع)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يوسف: ٨٩].

وهذا هو الموضع الأخير من استفهامات سيدنا يوسف – عليه السلام – وقد ورد في الجزء الأخير من القصة وهو يكشف لهم السر المخبوء عنهم، والغرض من الاستفهام هنا التوبيخ والتأنيب، على ما فعلوه، واقترفوه، وهنا تراه عليه السلام يستخدم فعل العلم : هل علمتم؟ ليشير إلى انطباع ما فعلوه في ذاكرتهم فليس فيه مجال للنسيان لعظم جرمه، ووراء ذلك تبكيت لهم وتذكير بماضيهم الأسود وكيف سامحهم وهو في موضع القوة، وهو محمل بمعاني «المعاتبة المحملة بقليل من التوبيخ والتقريع، ويفيد تعظيم الواقعة مع البعد عن التشفي حيث قدم لهم العذر على ما ارتكبوه بقوله: ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ (١).

وفي ذكر الفعل: «فَعَلْتُمْ»؛ إشارة إلى تحقيق الجرم بأيديهم وأنهم تآلبوا على ذلك واتفقوا عليه، وفي لفظ الفعل عموم يشمل كل هموم يوسف – عليه السلام – ومحنه التي مر بها جراء فعلهم القبيح، وهو عموم يتوافق مع عموم الموصول «ما».

وجملة: ﴿ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ كناية عن جرائمهم المشار إليها، وهي من استعمال الإنشاء في التوبيخ والحث على التوبة (٢).

---

(١) الجملة الطلبية في سورة يوسف دراسة تركيبية دلالية علاء الدين الغرابية : ٣٩٨ بتصرف يسير. الجامعة الأردنية . مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية المجلد ٤١ العدد ١ ٢٠١٤م.

(٢) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: ٢/ ١٤١.

كل هذا يعمل في سياق واحد مع معنى التوبيخ المستفاد من الاستفهام، ولذا جمع معه أخاه مع أنهم لم يفعلوا به مثله، لكنهم كانوا يضمرون له الكراهية والحسد مثل أخيه فلم يسلم من مضايقاتهم، ووصفهم من أجل ذلك بالجهل، وكأنه اعتذار لهم عما فعلوه بحق يوسف وأخيه.

والاستفهام بهل كما هو معروف يفيد التصديق والجواب بنعم أو لا، لكنهم أجابوه باستفهام آخر ينبئ عن اعترافهم وإقرارهم بفعلهم الشنيع: قالوا أإنك لأنت يوسف؟.

وهو ما سوف أتناوله في موضعه إن شاء الله.

ويلاحظ أنه تحدث عن نفسه بالاسم الظاهر الذي يعدل ضمير الغيبة وكذلك أخيه مضافًا إلى ضمير الغائب، وهو امتداد لمعنى التوبيخ المستفاد من الاستفهام؛ فكأنه وهو الماثل أمامهم غائب عن عقولهم وعيونهم لطول الزمن وعدم اكتراثهم بأمره فهو لهم قصة حدثت منذ عقود وامحت من عقولهم وهو يدرك ذلك لا محالة.

المبحث الثاني
الاستفهام الواقع من إخوة يوسف عليه السلام
(الموضع الأول)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١].

هذا هو أول استفهام وقع من إخوة يوسف – عليه السلام – بل هو أول استفهام ورد في السورة الكريمة، وأداة الاستفهام هي «ما» الاستفهامية متبوعة بحرف الجر اللام داخلة على كاف الخطاب الموجهة نحو أبيهم نبي الله يعقوب – عليه السلام – ووراء ذلك من الوقاحة والتبجح في خطاب الآباء ما وراءه، فلم يرقوا إلى درجة خطاب سيدنا إبراهيم – عليه السلام – وهو يخاطب أباه ويعلم أنه مشرك قائلًا: يا أبت، وهذه الوقاحة والتبجح امتداد للصورة النفسية المحيطة بالاستفهام، حيث ينضوي هذا الاستفهام على قدر كبير من الغدر والخيانة، ولذلك جدوا في التأكيد: وإنا له لناصحون، بـ «إن واللام واسمية الجملة»، لينتزعوا من نفس أبيهم عدم الثقة فيهم، وقد حددوا يوسف

– عليه السلام – دون أخيه؛ لأنه كان الأكثر نيلًا لاهتمام أبيه، فهو محط إثارة ضغائنهم.

هذا الجو المفعم بالغدر والخيانة الذي يثيره الاستفهام يتوافق مع سابقه حيث أضمروا قتله أو نفيه: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾.

والغرض من الاستفهام الإنكار على أبيهم في عدم ائتمانهم على يوسف، ويلوح كذلك برائحة التعجب من حال أبيهم، وذكر فعل الأمن المنفي هنا «لَا تَأْمَنَّا» يوحي بإضمارهم الشر، ومضارعيته تدل على تجدد انعدام ثقة أبيهم في حفظهم يوسف.

ومجيء أول استفهام في السورة مؤسسًا على الغدر والخيانة وإضمار الشر يوحي بداءة بمضمون القصة وأنها مؤسسة على مكنون حقد دفين لأخيهم وتدبير مكيدة يتخلصون بها من يوسف ذلك الفتى المدلل لدى أبيه الذي أثار ضغائنهم وأحقادهم.

(الموضع الثاني)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يوسف: ٦٥].

هذا هو الاستفهام الثاني من الاستفهامات الواقعة من إخوة يوسف – عليه السلام – وهو موجه كذلك مثل سابقه إلى أبيهم، والمراد: أي شيء نطلبه ونبغيه بعد هذا العطاء من الملك، إذ يهبنا كيل بعير ونرجع بأخينا ولا كلفة في ذلك ولا مشقة فيه، وقد حمله بعضهم على النفي، أي ما نظلم بقولنا وما نتزيد فيه والدليل على ذلك بضاعتنا التي ردت إلينا، من نفي البغي وهو الظلم، والأولى حمل الكلام على الاستفهام؛ لأن الجمل التالية مبينة له وهي قوله: هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير، ثم أوغلوا في إغراء أبيهم فقالوا: ذلك كيل يسير، أي لا كلفة فيه ولا خسارة.

قال الشيخ الطاهر بن عاشور: « وَمَا فِي قَوْلِهِ: مَا نَبْغِي يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِلِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ بِتَنْزِيلِ الْمُخَاطَبِ مَنْزِلَةَ مَنْ يَتَطَلَّبُ مِنْهُمْ تَحْصِيلَ بُغْيَةٍ فَيُنْكِرُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ بُغْيَةٌ أُخْرَى، أَيْ مَاذَا نَطْلُبُ بَعْدَ هَذَا. وَيَجُوزُ كَوْنُ مَا نَافِيَةً، وَالْمَعْنَى

وَاحِدٌ لِأَنَّ الِاسْتِفْهَامَ الْإِنْكَارِيَّ فِي مَعْنَى النَّفْيِ.» (١).

وبمراجعة الاستفهام تجد وراءه حرصًا على الدنيا وتعلقًا بها، فالأبناء يمكن أن يضحوا بأخيهم الآخر كما ضحوا من قبل بيوسف في سبيل توفير الميرة وتحصيل كيل بعير ولذلك قالوا: ﴿ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾، «ويجوز أن يكون من كلام يعقوب ، وأن حمل بعير واحد شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد» (٢).

وخطاب الوالد بهذه النبرة: ما نبغي؟ وفي قراءة بالتاء: ما تبغي؟ على مخاطبة يعقوب، ومعناه: أي شيء تطلب وراء هذا من الإحسان، أو من الشاهد على صدقنا؟ (٣).

وراءه وقاحة وتبجح في خطاب الآباء، وليس هذا بعيدًا على أبناء يعقوب – عليه السلام – فهم الذين أنكروا عليه عدم ائتمانهم على يوسف: ﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾، وهم الآن ينكرون عليه أن يبتغي وراء ذلك مطلبا، أو أن يبتغوا هم وراء ذلك مأربا: ما نبغي؟ بالنون أو بالتاء، وهو تجهم يكشف عن وجههم الحقيقي وتعلقهم بمصالحهم الشخصية وحدها ولو على حساب أرواح الآخرين، أو حتى بسوء الأدب في خطاب أبيهم وإن كان نبيًا من عند الله .

(١) التحرير والتنوير : ١٣/ ١٧ وانظر كذلك: إعراب القرآن وبيانه المؤلف: محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى : ١٤٠٣هـ): ٥ / ١٨ الناشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية، (دار اليمامة – دمشق – بيروت)، الطبعة: الرابعة، ١٤١٥ هـ.

(٢) الكشاف للزمخشري : ٢ / ٤٥٩.

(٣) السابق : ٢/ ٤٥٨.

إن الذي يضحي بأخيه وهو طفل ويزج به في قاع بئر مظلم ويقهر عليه أباه، لا يستبعد منه أن يتبجح في خطاب أبيه.

إن الاستفهام تفوح منه رائحة المادية البحتة والتضحية بكل غال وثمين في سبيل تحقيق المآرب والأغراض الدنيوية، وقد اتفقوا جميعًا في هذا الملمح النفسي هنا وفي الموضع السابق كذلك، ولذا جمعهم بالقول في الموضعين: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾، ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ ﴾، وهذا دليل على اتفاقهم جميعًا في الشر والخداع وإفراطهم في الأنانية وحب الذات.

(الموضع الثالث)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [يوسف: ٧١].

هذا هو الموضع الثالث من استفهامات إخوة يوسف – عليه السلام – وهو أول استفهام حقيقي، وما يتلوه كذلك وهما استفهامان، ويرجع ذلك إلى قرب نهاية القصة وحل عقدها شيئًا فشيئًا بعد وصولها إلى ذروة التعقيد كما هو عليه الحال في هذا الموضع، فسؤالهم استفهام حقيقي لا تجوز فيه بل هم الآن في مأزق، وجملة الحال: ﴿ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم ﴾ تعود على فتيان يوسف المنادين عليهم [1]، وقد ناداهم المؤذن متهمًا لهم بالسرقة: ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴾، وهي خطة من يوسف لأخذ أخيه فخرجوا بالكلام على خلاف مقتضى الظاهر إذ كان ظاهر اللفظ أن يقولوا: وماذا سرق منكم؟ لكنهم قالوا: ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾؟ «لبيان كمال

(١) التحرير والتنوير: ١٣ / ٢٨.

نزاهتِهم بإظهار أنه لم يُسْرق منهم شيء فضلاً أن يكونوا هم السارقين له، وفيه إرشادٌ لهم إلى مراعاة حسنِ الأدب والاحتراز عن المجازفة ونسبة البُرَآء إلى ما لا خيرَ فيه» [1] ولذا عدلوا الجواب: نفقد صواع الملك.

وتلحظ الانتقال من طور المخادعة في السؤال إلى طور الحقيقة والعفوية؛ وذلك يشير إلى تأزم الموقف واشتداد الكرب ومن ثم محاولة التحلي بالصدق والدفاع عن النفس فهم الآن متهمون خاضعون للتحقيق في ذنب لم يقترفوه.

(الموضع الرابع)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمُونِى فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يوسف: ٨٠].

الاستفهام الرابع هنا لم يقع من جميع إخوة يوسف، وإنما وقع من كبيرهم وهو المسؤول أمام أبيهم وقد خاطبهم مؤنبًا بعد أن وصلوا إلى حالة اليأس من رجوع أخيهم وأخذوا يتسارون فيما بينهم ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمُونِى فِى يُوسُفَ ﴾.

والاستفهام هنا منفي الغرض منه التقرير مع التذكير والتهويل لما اقترفوه بتفريطهم بأخيهم، وقد جاء بفعل العلم المضارع: تعلموا؛ ليشير إلى يقينهم التام

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى «المتوفى: ٩٨٢هـ»: ٤ / ٢٩٤، ٢٩٥ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

بيمينهم وقسمهم أمام أبيهم تقريعًا لهم إذ لم يقوموا بمقتضى هذا اليمين، مؤكدًا كلامه بـ «إن وقد»، وفعل الأخذ يوحي بالتورط في جريمة التفريط بأخيهم والتزامهم بإرجاعه بأي وسيلة.

وحرف الاستعلاء «عَلَيْكُم» يشعر بثقل المهمة ومشقة العهد والميثاق، لاسيما وأنه من الله «مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ» كل ذلك يعضد التأنيب والتبكيت الذي يفوح من الاستفهام المنفي .

وقد زادهم تقريعًا آخر وتوبيخًا مذكرًا لهم بفعلتهم القديمة الشنعاء: «وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ»، وقد عزم على عدم مفارقة الأرض «حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ».

(الموضع الخامس)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف: ٩٠].

جاء الاستفهام هنا جوابًا لاستفهام سابق وقع من سيدنا يوسف – عليه السلام – وهو قوله لإخوته: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ فأجابوا: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾.

والاستفهام هنا بالهمزة وهي هنا للتصديق، ولذا جاء الجواب بالإثبات: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي ﴾، والاستفهام حقيقي؛ لأنهم في الأصل يجهلون حقيقة من يحدثهم، ومع كونه حقيقيًا لكنه يحمل معاني الدهشة والتعجب والحيرة التي تقترب

شيئًا فشيئًا إلى درجة اليقين بكونه يوسف.

وقد جاء الاستفهام مؤكدا بـ «إن» واللام وضمير الفصل «أنت» واسمية الجملة، وترافد هذه المؤكدات يعكس ما تجول به نفوسهم من شك تحول في لحظة السؤال إلى يقينهم بكونه يوسف، وهو يرصد تاريخ عقود من الزمان مرت عليهم ويختزلها في لحظة فارقة بين الماضي الأليم والحاضر الذي يخلع القلوب لهول المفاجأة، وشدة الخوف والانبهار والقلق حيال هذا العزيز الذي بيده تصاريف الأمور والأقوات، مع ما وقع له منهم في طفولته من غدر وخيانة وتشريد، فقد قذفوه في أهوال الموت وانتزعوه من دفء أحضان أبيه وأمه؛ ليزجوا به في أعماق البئر وغيابة الجب في تجرد كامل من الرحمة والإنسانية.

إن الاستفهام بصورته التأكيدية هكذا: ﴿أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ يحمل معاني متدفقة من الدهشة والذهول والتفكير السريع في مصيرهم المجهول.

المبحث الثالث

الاستفهام الواقع من يعقوب عليه السلام

(الموضع الأول)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾ [يوسف: ٦٤].

هذا أول استفهام وقع من يعقوب – عليه السلام – وهو الوالد المكلوم في ولده من أبنائه، ويطلبون منه الآن أن يأتمنهم على أخيه، فبادرهم قائلا: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ﴾.

والاستفهام هنا بـ «هل» وهي للتصديق فقط، ومعنى ذلك أن الجواب يكون بالنفي أو الإثبات، لكنهم لم يقع منهم جواب أصلًا، وهذا يعكس لنا الحالة النفسية التي وصل إليها الوالد المكلوم فهو يتحدث إلى نفسه ويناجي ربه ويبثه همومه وأحزانه: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

والاستفهام في هذا المقام «يأتي بدلالات متداخلة لا يمكن قصرها على معنى بلاغي واحد، إذ ثمة ظلال إيحائية تكشف عن نفسية يعقوب – عليه السلام – الحزينة، فهو ليس تساؤلًا عن معرفة وقوع النسبة أو عدم وقوعها... بل يحمل الخطاب قدرًا من الاستغراب والاستنكار والنفي والتعجب من فكرة معاودة طلب الائتمان مرة ثانية، كما نجد قدرًا من الزجر والتوبيخ للمتلقي؛ إذ كيف يطلب المتلقي

مزيدًا من الفرص، وأثر ألمه ما زال باديًا على يعقوب عليه السلام.»[1].

والاستفهام قائم على تشبيه تمثيلي؛ حيث شبه حاله حين يأمنهم على أخي يوسف الصديق، وهم في نظره غير مأمونين، لكنه وثق بهم لكونهم إخوته، وحتى لا يثير في النفس مشاعر الكراهية والبغضاء وانعدام الثقة مع التمييز بين الأبناء، مع توقعه التفريط في أخيهم وإضاعته، شبه حاله تلك بحاله حين أمنهم على أخيه يوسف من قبل صغيرًا ففرطوا به مع اهتزاز ثقته بهم لكنه أراد ألا يثير كوامن الحقد في نفوسهم، وكانت العاقبة أن ضيعوه، ووجه الشبه هو اهتزاز الثقة في قوم أمنتهم فضيعوا الأمانة.

والتمثيل يعكس مشاعر الحسرة والكمد والألم الذي يحمله سيدنا يعقوب – عليه السلام – بداخله، ويحرك جراحات قديمة لا تندمل.

والاستفهام بمعنى النفي أي لا آمنكم، ووراءه إيحاء بانعدام الثقة فيهم، وعدم كونهم أهلًا لتحمل الأمانة، وفيه تقريع وتوبيخ لجرأتهم على طلب ذلك مجددًا.

وفي الاستفهام قصر طريقه النفي والاستثناء؛ حيث قصر ائتمانهم عليه على مشابهته ائتمانهم على يوسف في الغدر والخيانة ونفى عنهم الصدق والأمانة قصرًا إضافيًا وهو قصر قلب، حيث قلب اعتقادهم وهو أنهم صادقون مأمونون.

ولكن الوالد النبي المتصل بوحي السماء يفوض أمره إلى الله قائلًا: فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين، إذ لا سبيل أمامه للحصول على قوت أسرته إلا بذلك.

(١) الجملة الطلبية في سورة يوسف: ٣٩٨.

(الموضع الثاني)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [يوسف: ٩٦].

هذا هو الاستفهام الثاني والأخير من سيدنا يعقوب – عليه السلام – وهو يأتي في نهاية القصة بعد الانفراجة والبشرى بلقاء يوسف، وحين نقارن بينه وبين الاستفهام السابق نجد أن السابق ورد في أوج اشتداد الأزمة ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ بينما يأتي هذا إبان مجيء الفرج وانقشاع الألم وزف البشرى، وقد انفرد الأول بعدم ورود جواب من الأبناء، وهذا يعكس ضعف الوالد في هذا المقام وانعدام حيلته إلا من التعلق برحاب الله ورجائه، ولك أن تربط بين تذييل الاستفهامين؛ الأول: ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾؛ والثاني: ﴿ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، تجد الأخير مقولًا للقول المضمن في الاستفهام لكنهما يجتمعان في تفويض الأمر لله وتسليم القياد إليه سبحانه وحسن الظن بما عنده.

وينفرد كذلك هنا بمعنى التأنيب والتوبيخ «إذ نلحظ في هذا الخطاب قدرًا مكشوفًا من الافتخار والاعتزاز المنبعث من يعقوب عليه السلام إلى المتلقي بالنعمة الجليلة التي أنعم الله تعالى بها على نبيه... وقد أشرب القول بقدر من التوبيخ لهم على أنهم لم يصدقوه بادئ الأمر ليجيء الرد على ذلك بأن أخذ أولاد يعقوب

يعتذرون له: قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين» [1].

والاستفهام هنا منفي الغرض منه التقرير والتوبيخ لمن حوله على عدم ثقتهم في الله وتنكرهم ليعقوب أن وثق بلطف ربه ورجا رجوع ولديه معًا، حين قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا ﴾، وحين قال: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾، وحين قال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾، فكان ردهم: ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴾، فهو الآن يوبخهم على جهلهم وضعف يقينهم فيما عند الله: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

والتأكيد بـ «إنَّ» يعكس نفسًا قوية واثقة مطمئنة تمتلئ بالإيمان واليقين، وعموم ما يدل على سعة ما يعلمه سيدنا يعقوب – عليه السلام –

(١) الجملة الطلبية في سورة يوسف دراسة تركيبية دلالية :٣٩٧ .

المبحث الرابع

الاستفهام الواقع من امرأة العزيز

(موضع واحد)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يوسف: ٢٥].

هنا يلتقي استفهام امرأة العزيز مع إخوة يوسف في المكر والغش والخداع والكذب والتدليس والافتراء، فهم هناك يقولون: ﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾، وهي هنا تقول: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، وكلاهما قبل المحنة: الأول قبل محنة الطفولة والثاني قبل محنة الشباب، وقد تلت كلًا منهما محنة وشدة عصيبة لا انفراج لها في ظاهر الأمر، الأولى تتعلق بالحياة والموت، والثانية تتعلق بالشرف والأمانة.

وقد جاء استفهام امرأة العزيز إثر أزمة نفسية خانقة لها في سيطرة نوازع الشيطان على قلبها وعقلها واشتداد رياح عاصفة من دوافع إرضاء النفس بغضب الرب، في لحظة فارقة من الاستباق نحو الباب، يوسف يلوذ بالفرار وهي تحرص على أن تسبقه لإغلاق الباب حتى لا يهرب، فكانت المفاجأة: وألفيا سيدها لدى الباب، فما كان منها إلا أن سارعت بإلقاء التهمة على يوسف وتبرئة ساحتها لتضمن بذلك أمرين:

الأول: أنها بريئة من خيانة زوجها، والثاني: الإيقاع بيوسف والانتقام منه بزجه في السجن انتقامًا لنفسها.

وقد ذكر العلماء أن الآية تحتمل النفي أو الاستفهام، يقول الإمام الزمخشري:

« و« ما» نافية، أي: ليس جزاؤه إلا السجن. ويجوز أن تكون استفهامية، بمعنى: أي شيء جزاؤه إلا السجن، كما تقول: من في الدار إلا زيد» [(١)].

فإذا حمل على معنى النفي كان المعنى: ليس جزاؤه إلا السجن أو العذاب، فهو أسلوب قصر طريقه النفي والاستثناء وهو طريق قوي لا يرد إلا في مقامات الشدة والتوقد، فقد قصرت عقابه على السجن أو العذاب الأليم، قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا – كما يجول بعقلها – إرضاءً لنفسها وانتصارًا لهواها، والقصر هنا يعكس شدة الحرص على الانتقام والتشفي من يوسف، وقد نوعت هنا بين السجن والعذاب لتكسر حدة المفاجأة والصدمة التي تلقاها زوجها.

وإذا حمل على الاستفهام فإن الغرض منه التهويل والتفظيع وذلك بإثارة حميته على الانتقام وصون عرضه؛ «فقد هالها حضور زوجها وهي في حالة مريبة ففزعت إلى حيلة تبرئ بها نفسها وتفحم غريمها فهولت الأمر الذي هي فيه لتصرف سوء ظن زوجها فيها، لما استعظمت ما وجدهما عليه موهمة أنها الطاهرة العفيفة الثائرة على من أراد أن يعبث بشرفها.» [(٢)].

واحتمال الآية للوجهين: النفي والاستفهام، يعكس نفسًا قوية جريئة تعي ما تقول فقد تركت فهم المراد لزوجها «فكأنها تريد استثارة حفيظته على يوسف بالسؤال، وكذلك تضمن معايشته لها في المشكلة، لكنها لا تترك الجواب له بل تجزم

---

(١) الكشاف للزمخشري: ٤٥٩/٢.

(٢) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: ٢ / ١٢٥.

به وتحدده» [1].

ووراء استفهامها انعكاس نفسي واضح لجرأتها ومكرها وعشقها ورغبتها في الانتقام وإغراء زوجها بذلك وتبرئة ساحتها وإظهار صونها لعرضه.

وقد عبر القرآن الكريم بكنايتين غاية في الأدب والجمال والإبداع؛ إحداهما حين كنى عن الزوجة بالأهل: ﴿مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ﴾، وهي كناية متعارفة عند العرب ومثيرة لمشاعر الانتقام، والثانية في كنايته عن الفاحشة بالسوء: ﴿سُوٓءًا﴾ ، وهو لفظ عام يشمل كل أنواع الضرر وفيه ستر وخفاء وحياء، ووراء ذلك كله نفس ملكية تحمل معاني التمكن والسيطرة والأمر والنهي ونفس نسوية تحمل كذلك صفات الكيد والمكر والخداع والحرص على الانتقام.

وقد جاء جواب يوسف – عليه السلام – غاية في الأدب فلم يزد على أن قال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ مستعملًا ضمير الغائب مع أنها حاضرة؛ رغبة منه في عدم مواجهتها بضمير الخطاب وهي في مقام القوة والبطش، وتأدبًا مع زوجها الذي رباه ورعاه.

---

(١) جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف د. عويض بن حمود العطوي: ٤٥، ٤٦ عميد الدراسات العليا بجامعة تبوك . السعودية كلية التربية والآداب ١٤٣١هـ . تدبر.

المبحث الخامس

الاستفهام الواقع من الملك وأعوانه

(الموضع الأول)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [يوسف: ٥١].

هذا الاستفهام وقع من الملك حين طلب منه الصديق – عليه السلام – أن يسأل النسوة عن براءته: ﴿ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾.

فتوجه للنسوة قائلا: ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾، «وفي توجيه الكلام إليهن في صورة الخطاب ما يدل على حضورهن واستجوابهن» [(١)].

والخطب: الحدث الجلل، «والخَطْبُ: الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب»[(٢)]، وهذا بلا شك حدث جلل، وأمر عظيم شاع بين الناس، وقد نسب المراودة لهن جميعًا؛ لاشتراكهن فيها أو لمساعدة امرأته على ذلك، وفيها نوع من الستر على زوجة وعدم فضحها، والاستفهام حقيقي؛ لأنه في مقام مقاضاة ويريد إظهار الحقيقة.

---

(١) جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف: ١٠٩.

(٢) المفردات في غريب القرآن المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى «المتوفى: ٥٠٢هـ»: ٢٨٦ المحقق: صفوان عدنان الداودي الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ.

والاستفهام هنا يعكس من المعاني النفسية للملك الوداعة ولين الجانب وحسن الخلق، وقد يبدو هذا غريبًا لملك حبس نبيًا، لكن مواقفه الكثيرة في مشاهد القصة تشهد بذلك، فهو الذي قال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، وهو الذي لزم الصمت حين تفاجأ بمشهد المراودة وقبل شهادة قريبها، وهو الذي قبل الحوار والعفو عن يوسف بمجرد ظهور أمارات براءته، ويبدو ذلك جليًا في ذكر اسم يوسف في الاستفهام: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ وفي توجيه المراودة لهن وكأنه يبرئ يوسف، وقد جاءت إجابة النسوة شافية كافية متسقة مع إحساس الملك : ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾، وتوجت باعتراف زوجته: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

(الموضع الثاني)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [يوسف: ٧٤].

الاستفهام هنا وقع من أعوان الملك والغرض منه التقرير، أعني تقرير إخوة يوسف بالعقوبة السائدة في شرعهم لمن يسرق وهي الاسترقاق، ليحقق بذلك يوسف مراده من احتجاز أخيه، وحتى لا يكون في الظاهر مفتئتًا عليهم فقد أقروا هم بالعقوبة مسبقًا.

وقد وقع عقب قولهم: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

فاستلبوا منهم الإقرار بأن هذا شرعهم، وهو – عليه السلام – يعلم ذلك، ولذلك حين طلبوا منه أن يأخذ أحدهم مكانه قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون.

وهذا الاستفهام وإن كان قد ورد من أعوان الملك إلا أنه مدبر من قبل يوسف – عليه السلام – فهو المدبر والمخطط والملقن، ولذلك إذا تغافلنا عن خطة يوسف لإرجاع أخيه وأخذه، فإنه تنعكس على صفحاته من المعاني النفسية ما يتمتع به نبي الله يوسف من عدالة وبعد عن الظلم ونجاح قاهر في حياته وتخطيطه، ولذلك قال: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾.

المبحث السادس

الاستفهام الواقع من الله عز وجل

(الموضع الأول)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧ ﴾ [يوسف: ١٠٧].

الاستفهام هنا واقع من الله – عز وجل – وهو مرتبط بما قبله وهو قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦ ﴾.

والغرض من الاستفهام الإنكار التوبيخي؛ «فالهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي الممزوج بالتهديد» [1] فقد أنكر الله عليهم إعراضهم عن عذاب الله وعدم اعتبارهم بآيات الله وأنهم يشوبون إيمانهم بالشرك، فأنكر عليهم أمنهم إتيان غاشية من عذاب الله في أي لحظة، أو إتيان الساعة بغتة وهم لا يشعرون.

والاستفهام ينقل لنا الحالة النفسية التي كان عليها هؤلاء من الإعراض وعدم الاكتراث بآيات الله في الكون ونسيانهم قدرة الله على الانتقام المفاجئ ممن عصوه وأعرضوا عنه.

ووراء الاستفهام إيحاء بأن ركون العاصين إلى الدنيا وخلودهم إلى الأمن من عذاب الله وعدم خوفهم من الله يترتب عليه أحد عقابين: أحدهما نزول عذاب

---

(١) أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم . غرضه وإعرابه :٦٩ تأليف عبد الكريم محمود يوسف مطبعة الشام . الطبعة الأولى ١٤٢١هـ . ٢٠٠٠م.

دنيوي وهو الغاشية من عذاب الله، والثاني: إدراك غشيان الساعة بغتة وهم غافلون، وكلاهما مؤذن بغضب الله وسوء الخاتمة.

والأنكى في العذاب والإيلام أنها تأتي «بَغْتَةً» أي فجأة دون سابق إنذار، «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» وهي جملة حالية تؤذن بفجاءة الساعة وهي مرتبطة بصدر الآية «أَفَأَمِنُوا»؛ لأن أشد الألم أن يأتيك العقاب من مأمنه، وقد سمى العذاب غاشية؛ لأنه يغشاهم من حيث لا يتوقعون.

(الموضع الثاني، والثالث)

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَواْۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩ ﴾[يوسف: ١٠٩].

في هذه الآية ورد استفهامان من الله ـ عز وجل ـ وقد خرجا عن معناهما الحقيقي إلى أغراض بلاغية متعددة.

أما الأول: ففي قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ ﴾.

والمعنى: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْأَقْوَامِ السَّابِقِينَ، أَيْ فَيَنْظُرُوا آثَارَ آخِرِ أَحْوَالِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ فَيَعْلَمُ قَوْمُكَ أَنَّ عَاقِبَتَهُمْ عَلَى قِيَاسِ عَاقِبَةِ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ قَبْلَهُمْ» (١).

(١) التحرير والتنوير: ١٢ / ٦٨.

وقد كان أهل مكة ينكرون أن يكون الرسل منهم فأخبرهم أن الرسل السابقين كانوا رجالًا وليسوا ملائكة، ثم ذكرهم بضرورة الاعتبار بأحوال الذين من قبلهم منكرًا عليهم لاسيما وأنهم أهل سيرورة في الأرض وانتقال بالتجارة والحرب وغيرهما.

وقد تضمن هذا الاستفهام قوله: ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، «وكيف هنا ليست استفهامية كما توهم بعضهم، بل هي لفت نظر إلى حقيقة الكيفية المؤلمة»[1].

والغرض من الاستفهام هنا: التقرير؛ أي تقريرهم بما آلت إليه أحوالهم والنظر نظر اعتبار وعظة مما آلت إليه عاقبتهم، وفيه مع التقرير توبيخ لهم على ترك الاعتبار.

والاستفهام الثاني في ختام الآية: أفلا تعقلون؟ والغرض منه الإنكار التوبيخي واتهامهم بإهمال العقل بترك النظر، وكأنهم بذلك صاروا بلا عقل، وفيه التفات من الغيبة في صدر الآية إلى الخطاب في عجزها؛ ووراءه زيادة تقريع لهم حيث ظهرت لهم الدلائل فلم يعتبروا.

والاستفهامان في الآية الكريمة تعكس الحالة النفسية التي كان عليها أهل مكة من تبلد الحس وتجمد الشعور وتعطيل العقل، حيث ظهرت براهين صدق رسولهم ساطعة فيمن تقدمهم لكنهم لم يعتبروا ولم يفيدوا مما سمعوه ورأوه من قصص الأمم السابقة في حلهم وترحالهم، فكانوا بذلك كمن يرى النور لكنه يسير في الظلام، ويعرف الحق لكنه يختار الباطل ويرى طريق الهدى لكنه يؤثر طريق الضلال.

---

(١) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: ٢ / ١٤٧.

الخاتمـــة

بعد الانتهاء من رحلة نفسية بلاغية مع سورة يوسف من خلال أسلوب الاستفهام، يمكن تدوين أهم النتائج التي أسفر عنها البحث، وهي تتمثل فيما يأتي:

أولًا . تنوعت أدوات الاستفهام في سورة يوسف ما بين «الهمزة» وهي أكثرها ورودًا، حيث وردت ثماني مرات، و«ما» وقد وردت ست مرات، و«هل» وقد وردت مرتين، ثم ماذا وقد وردت مرة واحدة.

وهذا التنوع في أدوات الاستفهام يتوافق مع اختلاف المقامات البلاغية، وتنوع الشخصيات، وتعدد المسؤول عنه في الجملة.

وجاءت الأغراض البلاغية كذلك مترددة بين الإنكار التوبيخي أو الإبطالي، أو التقرير، أو النفي، أو التهديد والوعيد، أو التعجب، إلى آخر تلك المعاني التي فاض بها الاستفهام في السورة الكريمة وفق المقام وشخصيات القصة ودواعي السؤال.

ثانيًا ـ انعكست على استفهامات نبي الله سيدنا يوسف الصديق – عليه السلام – المعالم النفسية لشخصيته الكريمة، وهي تتمثل في قوة تحمله آلام المحنة مما جعله ينصرف في المقام الأول لدعوته ويهتم بها وينسى محنته، فهو يقدم الدين على الدنيا والعقيدة على المصلحة الشخصية، والاستبراء لدينه وعرضه على خروجه من السجن، وحين مكن الله له لم يتشفّ يوما من إخوته رغم مثولهم أذلاء بين يديه، وهو في موقع السلطة والقوة، وما زاد على أن عاتبهم عتاب المحبين، لتنعكس من خلال استفهاماته – عليه السلام – أروع القصص والأمثلة الإنسانية في سمو

النفس ورفعتها والعفو عند المقدرة.

ثالثًا ـ فإذا انتقلنا إلى إخوة يوسف وجدنا الاستفهام عندهم يفوح بروائح نفسية قبيحة كالتبجح والوقاحة وسوء الأدب في مخاطبة الآباء والغدر والخيانة وإضمار الشر، حيث تنعكس على صفحاته معالم نفسية خطيرة من تغلغل الحقد الدفين والحسد القاتل في حنايا نفوسهم، وما وراء ذلك من الحرص على الدنيا والتعلق بها والتجهم وتقديم المصالح الشخصية ولو على حساب أرواح الآخرين.

إن الاستفهام يعكس تأثرهم بالمادية البحتة والتضحية بكل غال وثمين في سبيل تحقيق المآرب الشخصية والأغراض الدنيوية، والإفراط في الأنانية وحب الذات.

فإذا انتقلنا إلى نهاية القصة وهم في تأزم الموقف واشتداد الكرب ظهرت محاولات التحلي بالصدق والدفاع عن النفس ومع ذلك لم يخلُ الاستفهام من أثر نفسي يحمل معاني الدهشة والحيرة والتعجب والذهول.

رابعًا ـ فإذا انتقلنا إلى الوالد المكلوم بفقد ابنه وقرة عينه وجدنا الاستفهام محملًا بمعان نفسية عميقة من الحزن والنجوى والحسرة والكمد والألم النفسي العميق الذي يحمله سيدنا يعقوب – عليه السلام – مع انعدام حيلته إلا من التعلق برحاب الله، وهو مع ذلك يحمل لأبنائه قدرا من الإنكار والتوبيخ وانعدام الثقة بهم ويحرك في نفسه جراحات قديمة لا تندمل.

خامسًا ـ بينما نجد الاستفهام عند امرأة العزيز وهو في موضع واحد: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ، يحمل من المعاني النفسية المكر والغش والكيد والخداع والتدليس والافتراء، ويعكس كذلك وقوعها في أزمة

نفسية خانقة تحت سيطرة نوازع الشيطان ونوازع الشهوة، لكنها مع ذلك نفس ملكية قوية جريئة تحمل معاني التمكن والسيطرة والأمر والنهي، وإغراء زوجها بالانتقام.

سادسًا ـ انعكس على الاستفهام الواقع من الملك وأعوانه معاني القدرة الملكية والسلطة القادرة على المحاسبة والمقاضاة، مع الاعتدال وإقامة العدل ولين الجانب والوداعة قبل الصّدّيق يوسف – عليه السلام.

سابعًا ـ وأخيرًا تأتي الاستفهامات الواردة في ختام السورة المباركة وهي من الله – عز وجل – وعددها ثلاثة، وهي في مجملها تعكس القدرة القاهرة لرب العالمين والتهديد والوعيد لهؤلاء المعرضين الذين لم يعتبروا من قصص الأمم السابقة قبلهم، وهو ينقل لنا الحالة النفسية التي كان عليها هؤلاء من الإعراض وتعطيل العقل وتبلد الحس، وفيه نوع من الإنكار التوبيخي لهم على أمنهم عقاب الله.

فهرس المصادر والمراجع

- أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم – غرضه وإعرابه تأليف عبد الكريم محمود يوسف مطبعة الشام – الطبعة الأولى ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.
- إعراب القرآن الكريم وصرفه وبيانه المؤلف: محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش «المتوفى : ١٤٠٣هـ» الناشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية، «دار اليمامة – دمشق – بيروت»، الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥ هـ.
- البحر المحيط في التفسير المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي «المتوفى: ٧٤٥هـ» المحقق: صدقي محمد جميل الناشر: دار الفكر – بيروت الطبعة: ١٤٢٠ هـ.
- التحرير والتنوير: «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي «المتوفى: ١٣٩٣هـ» الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر: ١٩٨٤ هـ
- تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى «المتوفى: ٩٨٢هـ» الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم – أول تفسير موضوعي «١٢٦٠» استفهاما في القرآن كله تأليف ا د عبد العظيم المطعني – رحمه الله تعالى – جامعة الأزهر مكتبة وهبه الطبعة الأولى – ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري – المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق

النجاة «مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي» الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

. جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف د.عويض بن حمود العطوي – عميد الدراسات العليا بجامعة تبوك – السعودية كلية التربية والآداب ١٤٣١هـ – تدبر.

ـ الجملة الطلبية في سورة يوسف دراسة تركيبية دلالية علاء الدين الغرابية الجامعة الأردنية – مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية المجلد ٤١ العدد ١ ٢٠١٤م.

– دلائل الإعجاز في علم المعاني المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ) المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت تحقيق : عبد الرزاق المهدي.

ـ المفردات في غريب القرآن المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني «المتوفى: ٥٠٢هـ»المحقق: صفوان عدنان الداودي الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت الطبعة: الأولى – ٤١٢ هـ.